مدخلٌ إلى فاعليّة اللغةِ ووظائفها

أ.د. إياد عبد الودود عثمان الحمدانيّ

كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة – جامعة ديالى

تُمَثِّلُ اللغةُ مجموعةً من الرّموزِ والأصواتِ والإشاراتِ المفيدةِ الّتي يُعَبِّرُ فيها الإنسانُ عن أفكارِهِ ومشاعرِهِ وأغراضِهِ .

وهيَ وسيلةٌ تواصليّةٌ اجتذبَتْ علماءَ اللغةِ وغيرَهُم، وكانَ ابن جنّي (ت٣٩٢هـ) يُؤَكِّدُ على أنَّ اللغةَ قيمةٌ نَفعيّةٌ تعبيريَّةٌ؛ واعتنى العربُ والمُسلمونَ بآليّةِ عملِها، وتَوَسَّعُوا في دراسَتِها للكشفِ عن الإعجازِ القرآنيّ، فألَّفُوا آلافَ الكتبِ المُدهِشَة، ومن أبرزِها كتابا (أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز) لعبد القاهر الْجُرجانيّ (ت٤٧١هـ)، وانتقلتْ طريقتُهُمْ في الرّصْدِ الْجَماليّ إلى دراسةِ الإبداعِ الشّعريّ والنّثريّ، ونشأَ علمُ البلاغَةِ العربيّ الأصيلُ على أساسٍ معياريٍّ يَستندُ إلى الأحكامِ الْجماليّةِ الْجمعيّةِ الشّائعَةِ الّتي رسّخَ ظهورَها القرآنُ الكريم، والحديثُ يَطولُ في ذلك.

لقد التقى التّفكيرُ اللغويُّ الغربيُّ بالتّفكيرِ اللغويّ العربيّ، ونرى – على سبيلِ المثالِ– الناقد والفيلسوف الفرنسي جان كوهن وجدَ أنّ اللغةَ نظامٌ من الرّموزِ الصّوتيّةِ يتحقّقُ بوساطتِها – زيادة على التّواصل– الانتقالُ من النّمطِ الأدائيّ اللغويّ المألوفِ إلى ما أسماهُ بـ(اللغة الانفعاليّة) التي يَظهرُ فيها التّعبيرُ المجازيُّ القائِمُ على استعمالِ اللفظِ في غيرِ موضِعِهِ المألوفِ للقيام بوظيفة، وغير ذلك .

إنَّ علاقةَ اللغةِ بالفِكرِ واضحَةٍ ومُهمّة، وبها تتميّزُ لغةُ الإنسانِ عن لغةِ الحيوان، فالعلاقة بين الدّال والمَدلولِ تكامليّةٌ (كأن نقول: الوردةُ وهي **الدّال** ، ونريد : الحبّ وهو **المدلول)** ، وهذهِ العَلاقةُ أصلٌ مهمٌّ في تحقيقِ الوظيفة الشِّعريّةِ

POETICS بوصفِها مظهراً داخليّاً في نظامِ اللغةِ وخصوصيّتها؛ إذ إنَّ لكلِّ لغةٍ من لغاتِ العالمِ نظامَها المُرتبط بطرائقِ أدائِها الصّوتيّة والصّرفيّة والنحويّة والدَّلاليّة، وغير ذلكَ.

إنَّ اللغةَ العربيّةَ واحدةٌ من اللغاتِ الفاعلةِ في العالمِ، فهي من بين اللغاتِ الرّسميّةِ المُعتَمَدةِ في منظّمَةِ الأممِ المتّحدة، ويُحتَفَلُ باليومِ العالميّ لها في الثامن عشر من كانون الأوّل من كلِّ عامٍ، وهوَ التأريخُ الذي قرّرتْ فيه الجمعيّةُ العامّة للأممِ المتحدة إدخالَ اللغةِ العربيّةِ ضمنَ مجموعةِ اللغاتِ الأمميّةِ المعتَمَدَةِ، وذلك في عام ١٩٧٣م ، إلى جانبِ اللغات الخمس: الإنجليزيّة، والصينيّة، والإسبانيّة، والفرنسيّة، والرّوسيّة؛ إذ يَتحدَّثُ العربيّة أكثر من خمسمئة مليون متحَدّثٍ على وجهِ المَعمورةِ.

لقد صَنَّفَ علماءُ اللغةِ اللغاتِ إلى عوائلَ تَبعاً لأصولِها التأريخيّةِ وَنِظامِ عملِها، من مثلِ: (الْجَزريّة السّاميّة، الهندوأوروبيّة، الصّينيّة التّبتيّة، الألطيّة ومنها التركيّة ، وغيرها) ، تَقَعُ اللغَةُ العَربيّة ضمنَ مَجموعةِ اللغاتِ الْجَزريّةِ (السّاميّة)، والّذي أطلقَ هذهِ التّسميةَ المستشرقُ الألمانيّ النّمساويّ شلوتزرShlotzer عام ١٧٨١م معَ العِبريّة والأكديّة والكنعانيّة والبابليّة والآشوريّة والآراميّة ... ويصلُ عددُ لغاتِ العالَمِ إلى أكثر من ٦٩٠٠ لغة مختلفة ، ٢٣٠ منها موجودة في أوروبا ، و ٢٠٠٠ منها موجودة في آسيا.

تُعَدُّ اللغةُ الإنجليزيّة أكثر اللغاتِ تحدُّثاً، تتبعها لغةُ الماندرين الصّينيّة، ثمَّ اللغةُ الهنديّةُ، ثُمَّ اللغةُ الإسبانيّة، ثُمَّ اللغَةُ العَربيَّةُ ، ثُمَّ اللغَةُ البَنغاليّة، ثُمَّ اللغةُ الرّوسيّة.

وللغاتِ في العالمِ عُمرٌ وذاكرةٌ مقروءةٌ ومفهومةٌ تتبايَنُ فيما بينَها بسببِ ظروفِ التطوّرِ اللغويّ والمُتغيّراتِ الخارجيّةِ الّتي تُؤثّرُ فيها، وَبسببِ ذلكَ ظَهَرَتْ خُصوصيَّةُ اللغةِ العربيّةِ الّتي تَمتَلِكُ عُمْراً طَويلاً، وَغَزارةً في المُفرَداتِ (أكثرُ من اثنتي عشرة مليونَ كلمَةٍ من دونِ تَكرار)، ودقّةً متناهيةً في التّعبيرِ جاءَ بسببِ الظروفِ التاريخية

الّتي مَرَّتْ بها، فالعربيّةُ لغةُ القرآنِ الكريم، وعُمرُها المقروءُ المَفهومُ يمتدُّ إلى أكثرَ من ألفٍ وخمسمئةٍ سنة، وهيَ بذلكَ تصلحُ لكتابةِ الخطَطِ المستقبليّة المئويّة؛ لأنَّ المتغيّراتِ الّتي تَطرأُ عليها محدودة، فإذا ما قارنّا بينها وبينَ اللغةِ الإنجليزيّة (عدد كلماتِها يقارب ستمئة ألفِ كلمةٍ) فسنجِدُ أنَّ عمرَها المَقروءَ المَفهومَ لا يتعدّى الخمسمئةِ عام؛ فشعرُ شكسبير، وراسين، وكورنيه وغيرهم ممّا يُعْرَفون بالشّعراء التقليديين غيرُ مقروءٍ، وغيرُ مفهومٍ إلا من المُتَخَصّصين. أمّا اللغةُ الإبداعيّةُ العربيّةُ فتمتدُّ إلى ما قبل الإسلام؛ يقولُ الأعشى (وهو شاعر جاهلي) في وَصفِ مَشيةِ امرأة: **كأنّ مَشيَتَها من بَيتِ جارَتِها // مرُّ السّحابَةِ لا رَيثٌ ولا عَجَلُ**

أما القرآن الكريم فلهُ تأثيرٌ عظيمٌ في نفوسِ العَربِ والمُسلمينَ، وهو محفوظٌ في صدورِ المَلايين منهُم على الرّغم من عمرِهِ الطّويل جدًا ، ويَصدقُ هذا القولُ على أحاديثِ الرّسولِ الكريم (صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم)، وكذا خطبِ الخُلفاءِ الرّاشدين، وسائرِ سادةِ العربِ المَعروفينَ ببلاغتِهِم وتَمكّنِهِم من اللغة، ثمّ أنّ الشّعرَ العربيَّ (الذي عُرِفَ بأنّهُ ديوانُ العَرَب) ذو مُنجزٍ وَاضِحٍ، وكذا النّثرَ بأنواعِهِ، ففيهما ثروةٌ من الإبداع قلَّ نَظيرُها في أممِ الأرض. فعلى الرّغمِ من العُمر الإبداعيّ المُمْتَدّ كما أسلَفْنا نَجِدُ هذا الإبداعَ اللغويَّ يَرتَبِطُ بقوّةٍ بفنّ التّفكيرِ وإتقانِ الكَلام؛ وبسَبَبِ ذلكَ ميّزَ دي سوسير – مؤسّسُ علمِ اللغَةِ الحَديثِ – بينَ اللغةِ والكَلامِ، ووَجَدَ أنّ اللغَةَ تَقومُ على القَواعدِ والأعرافِ المُجرَّدَةِ والمَنهجيّة لنظامِ الدّلالةِ المُتَشكّلِ في ذاكرتِنا الْجمعيّةِ وخبراتِنا المُستَمَدّة من البيئةِ اللغويّةِ نَفسِها. أمّا الكلامُ فهو يمثّلُ الكيفيّةَ الفرديّةَ وطريقةَ التعبير؛ وَبسببِ ذلكَ يتميّزُ البلغاءُ عن غيرِهم.

إنَّ اللغةَ انتماءٌ وهُوِيّةٌ، وكانَ سادةُ العَربِ يُشيرونَ إلى أنَّ اللغةَ تَقودُ إلى المُروءةِ. وقد قالَ القدماءُ: ((تَعَلَّمُوا العربيَّةَ فإنَّها تزيدُ من المروءةِ))، ونجدُ أُممَ الدُّنيا تعتزُّ بلغاتِها، وهي أساسٌ للانتماء القوميّ. فالألمانيّةُ عندَ أهلِها هيَ أصلٌ مهمٌّ لجَعلِهم هُمُ الأفضَل، وهم يتمسّكونَ باللغةِ ويَجدونَها جزءاً من وجودِهِم، واستطاعَ اليَهودُ –

بعنصريّتِهم– إحياءَ اللغةِ العبريّةِ ونقلها من قوالبِها الدّينيّةِ الجامدَةِ إلى عوالِمَ مُتعدّدة؛ لوعيهِمْ بأهميّتِها في تأسيسِ وَطنٍ قَوميٍّ لَهُم .

ويوظِّفُ علماءُ النَّفسِ السّريريّ اللغةَ في التّنويمِ المغناطيسيّ، ويرى بعضُهُم أنَّ الهستيريا تُظهِرُ اضطراباً في اللغةِ، فالدّوالُّ تفقدُ مدلولاتِها؛ إذ نَجدَ المَدلولاتِ مشوَّشَةً. ووجدَ الكثيرُ من فلاسفةِ اللغةِ أنَّ اللغةَ والفِكرَ مُتكاملان، أي أنَّ هناكَ مُسَوِّغاً وهدفاً يرتبطُ بما يُعرَفُ بالوَظائفِ الّتي تَستندُ إلى نَقلِ الخبراتِ الإنسانيّةِ، والتّعبير عن المَشاعرِ والأفكارِ واكتسابِ المَعارف .

أثارَتِ الوظائفُ التي تَقومُ بها اللغةُ صِراعًا فِكريّا وَفلسَفيّا عندَ فَلاسِفَةِ اللغَةِ وعلمائِها، ودارَ جَدَلٌ يَطولُ الحديثُ فيه، يُمكِنُنا حَصْرَهُ في اتجاهَين رئيسَين:

الاتجاه الأول: يرى أنَّ وظيفةَ اللغةِ خارجيّةٌ، على أساسِ ما تقومُ بهِ من تَواصلٍ اجتماعيٍّ، ومن الّذينَ التَفَتوا إلى ذلكَ ابن خلدون الذي يَجدُ أنّ الإنسانَ لا يستطيعُ العيشَ خارجَ الأطرِ الاجتماعيَّةِ، وهذهِ الأطر، تُسهِمُ اللغةُ في تَحقيقِها عن طريقِ تبادلِ الثّقافاتِ واكتسابِ الخبراتِ، وتوفيرِ مساحاتِ النِّقاشِ والْجَدَلِ، وَغيرها. ومن شروطِ التّواصُلِ وجودُ العَوامل الآتية: ١. المُرسِل (الشّخصُ الباعِثُ للرّسالة)، ٢. المُرسَلُ إليه (الشّخصُ المُتلقّي للرّسالةِ، وهو الذي يَفكُّ الشّفرات)، ٣. الرّسالة (الحوارُ الضّمنيّ الدّائِرُ بينَ المُرسِل والمُرسَل إليه، وهي تبليغيّة وتمثّلُ العاملَ المَلموسَ من العمليّةِ التّواصليّةِ أداتُهُ القَناة)، ٤. روابطُ الاتّصالِ (القناةُ وهي الممرّ الفسيولوجي من المُرسِل إلى المُرسَل إليه؛ وقد يكونُ حوارًا مباشرًا وجهًا لوجه، أو غير مباشرٍ عن طريقِ المِذياع أو التّلفازِ أو الرّسائلِ الصّوتيّةِ، وَغيرها)، ٥. الشّيفرة (نظام التّرميز المُتعارَف عليه). ويجدُ رومان ياكوبسن Jakobson ، وهو من أهمّ اللسانيينَ والمُفكرين الفرنسيين – أن (أدبيّةَ الأدب) تجعلُ من لغةِ الأدبِ نَمَطًا أدائيًّا خاصًّا بها، ولا يُمكِنُ أن يتَحقّق التّواصل إلا بالعواملِ السّابقَةِ فضلًا عن عاملٍ سادسٍ

أسماهُ المَرجِع (وهو السّياقُ الذي تُقال فيه الرّسالة التّبليغيّة ويُفهم عن طريقِهِ معنى الرّسالة).

الاتجاه الثّاني: يَرفضُ اعتمادَ التّواصل، ووجدَ أتباعُهُ أنّ هناك وظائفَ أخرى داخليّة كالوظيفةِ النفسيّةِ المُرتبِطَةِ بالحُبِّ والكُرهِ وَالتّنفيسِ عن المَكبوتاتِ، وكذا الوَظيفةِ العَقليَّةِ المُرتَبِطَةِ بفنّ التَّفكيرِ والذّكاءِ، والتعليميّةِ (التي تَعتَمِدُ القَوانينَ والتّواصُلَ بين المُعلِّم والمُعَلَّم)، والتّربويّةِ (بين الأم والأبناء)، والاستكشافيّةِ (لمعرفَةِ العالمِ الخارجيّ على أساسِ أنّ اللغَةَ ذاكرةٌ إنسانيّة)، والتّنظيميّةُ (المُرتَبِطَةُ بالمَنهَجِ والتحرّرِ من الحياةِ الهَمَجِيّة)، والتخييليّة (التي يقومُ عليها الفنّ ومتعلّقاته، ويُمكنُ أنْ تَعتَمِدُ لتَحقيقِ الشّعريّةِ داخلِ اللغةِ نَفسِها، وهي لغةٌ خاصّةٌ متفرّدَةٌ لها قوانينُها وأنظمَةُ عملها مثل الموسيقى والأنماطِ المَجازيّةِ كالتَّشبيهِ والاستعارَةِ والكنايَةِ، وغير ذلك). وهنا يُمكن القولُ إنّ الْجَمعَ بينَ الاتّجاهَينِ هو الأصحّ؛ لأنَّ أحدَهما يُكمّلُ الآخر ولا تناقضَ بينَهما، فاللغةُ لا تَنْحَصِرُ على التَّواصُلِ بل لها وظائفُ كَشَف عنها الاتّجاه الثاني (الخارجي). إن المنطقَ السّليمَ يقولُ إن اللغةَ تقومُ على العواطِفِ والأفكارِ والتّواصل.

وهناكَ وظائفُ أخرى يمكنُ تأمّلُ بعضِها في الآتي:

أ. الوظيفةُ النّفعيّة: وتقوم على إشباعِ الرّغباتِ بالطَّلَبِ، ويَظهرُ ذلك لدى الصّغار بشكلٍ أوضَح.

ب. الوظيفةُ اللعبيّة: على أساسِ أنّ اللعِبَ بالألفاظِ والمَعاني يُشيرُ إلى التّسالي بوساطة الأحاجي والألغازِ المُرتبطَةِ بالنّحوِ والتّلطّفِ اللغويّ.

أخيرًا يمكنُ القول إنّ البَحثَ في وظائفِ اللغَةِ يَقَعُ ضمنَ التَّفكيرِ اللغويّ المتقدّمِ المُقَترِنِ بفلسَفَةِ اللغَةِ وَفاعليّتها. ولا يمكنُ توجيهُ الوظائفِ بأكثرِ من اتّجاه؛ إذ إنّ بعضُها يكمّلُ بعضًا.

اسألُ الله التوفيق والسَّداد.